
محمد العروسي المطوي
السمكة المغرورة
الشركة التونسية للنشر

محمد العروسي المطوي

السمكة المغرورة

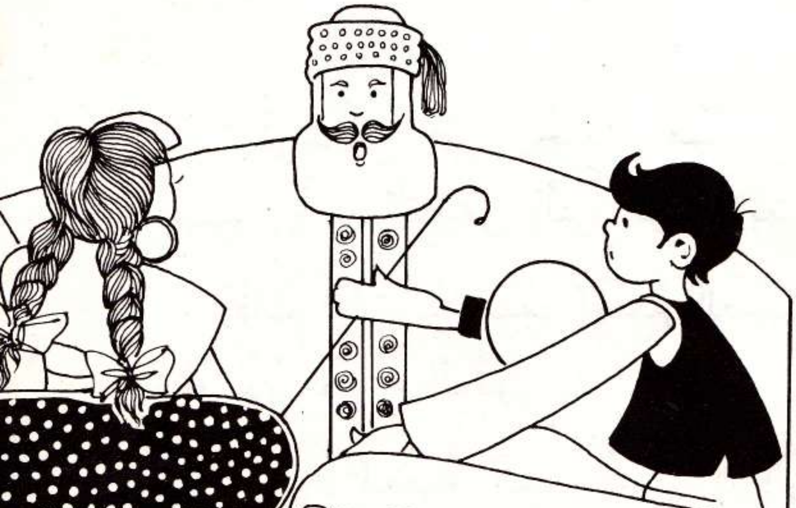
النشرة الخامسة

الدار التونسية للنشر

كَانَ ٱلشَّيْخُ عَلِيٌّ يَجْتَمِعُ بِصِبْيَانِ ٱلْحَيِّ كُلَّ لَيْلَةِ جُمُعَةٍ لِيَقُصَّ عَلَيْهِمْ إِحْدَى ٱلْقِصَصِ ٱلَّتِي عَوَّدَهُمْ بِهَا مُنْذُ زَمَانٍ بَعِيدٍ .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ - بَعْدَمَا ٱجْتَمَعَ ٱلصِّبْيَانُ بِالشَّيْخِ عَلِيٍّ وَٱلْتَفُّوا حَوْلَهُ - قَالَ لَهُمْ بِصَوْتِهِ ٱلْوَقُورِ :

... إِنَّ ٱلقِصَّةَ ٱلتِي سَتَسْتَمِعُونَ إِلَيْهَا اللَّيْلَةَ هِيَ قِصَّةُ «ٱلسَّمَكَةِ



ٱلْمَغْـرُورَة» . وَقَدْ قَصَّتْهَـا عَلَيَّ ٱلسَّمَكَةُ نَفْسُهَـا قَبْلَ أَنْ تَقْطَعَهَا ٱلسِّكِّينُ وَتُرْمَى فِي ٱلطَّـاجِينِ.
قَالَتِ ٱلسَّمَكَـةُ :
فِي فَجْرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ ٱلصَّيْفِ خَرَجْتُ فِي جَمْعٍ كَبِيرٍ مَعَ أَصْحَابِي مِنْ صِغَارِ ٱلْتُنِّ، وَذَهَبْنَا بَعِيدًا عَنْ مَنَازِلِنَا لِلْبَحْثِ عَنِ ٱلطَّعَامِ وَٱلتَّرْوِيحِ عَنِ ٱلنَّفْسِ. وَٱسْتَمَرَّ بِنَا ٱلتَّجْوَالُ حَتَّى ظَهَرَتِ ٱلشَّمْسُ فِي ٱلْأُفُقِ فِي



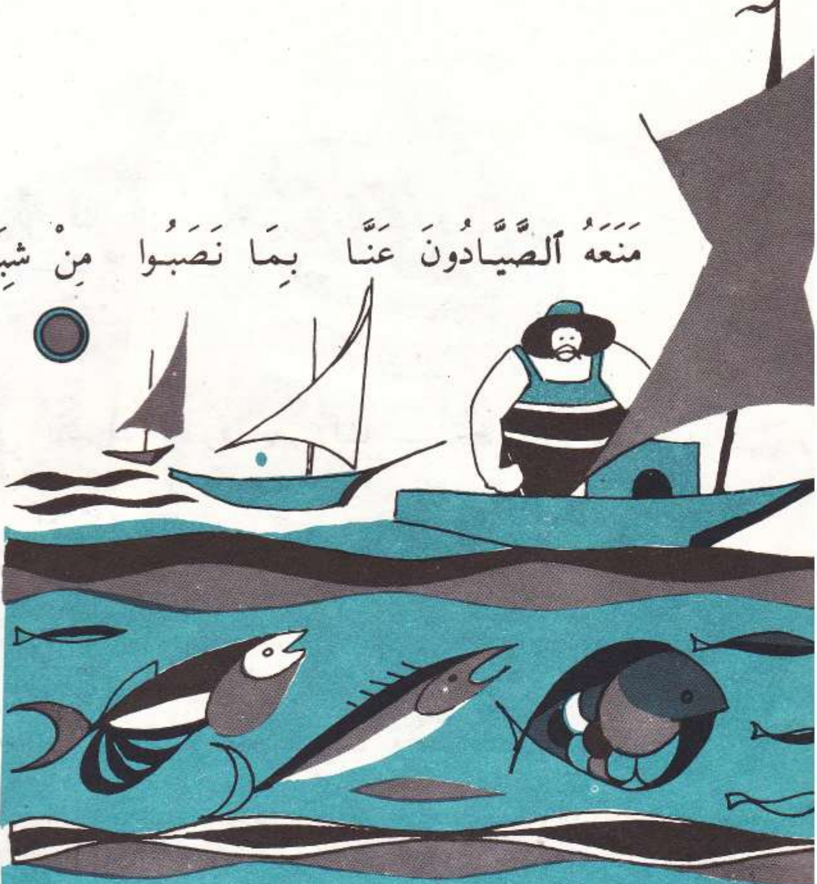
لَوْنِهَا ٱلْبَدِيعِ ، وَٱنْعَكَسَتْ أَشِعَّتُهَا عَلَى مَاءِ ٱلْبَحْرِ ، وَغَمَرَنَا نُورُهَا ٱلسَّاطِعُ ؛ فَأَخَذْنَا نَسْرَحُ زَاهِيَاتٍ ، وَنَمْرَحُ نَاشِطَاتٍ ، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ بَصَرُنَا يَمْتَدُّ إِلَى مَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ . وَلَكِنَّ فَرْحَتَنَا فِي هَذَا ٱلْيَوْمِ لَمْ تَطُلْ ؛ فَقَدْ رَجَعَتْ إِلَيْنَا إِحْدَى رَفِيقَاتِنَا خَائِفَةً مَذْعُورَةً وَهِيَ تَصِيحُ «... لَقَدْ وَقَعْنَا ... لَقَدْ وَقَعْنَا فِي ٱلْفَخِّ .!!»

أَسْرَعْنَا كُلُّنَا وَأَحَطْنَا بِرَفِيقَتِنَا ٱلْمَذْعُورَةِ لِنَعْرِفَ سَبَبَ خَوْفِهَا وَمَبْعَثَ فَزَعِهَا ؛ فَأَخْبَرَتْنَا بِصَوْتِهَا ٱلْمُتَقَطِّعِ ٱلْمُرْتَجِفِ أَنَّ حَاجِزًا كَبِيرًا مَهُولاً يَمْنَعُهَا مِنْ مُتَابَعَةِ تَجْوَالِهَا . وَهُوَ ٱلْحَاجِزُ ٱلَّذِي يَضَعُهُ ٱلصَّيَّادُونَ لِصَيْدِ ٱلسَّمَكِ .وَكُنَّا دَائِمًا نَسْمَعُ عَنْهُ ٱلْأَخْبَارَ ٱلْمُزْعِجَةَ وَٱلْأَحَادِيثَ ٱلْمُفْزِعَةَ مِنْ



آبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا ، لِهَذَا ٱسْتَوْلَى عَلَيْنَا كُلِّنَا ٱلْفَزَعُ وَٱلْخَوفُ . وَعَزَمْنَا عَلَى ٱلْفِرَارِ . وَٱزْدَادَ خَوْفُنَا أَكْثَرَ عِنْدَمَا عَرَفْنَا أَنَّنَا وَقَعْنَا فِي ٱلشَّرَكِ وَلَا نَسْتَطِيعُ ٱلْهَرَبَ وَٱلنَّجَاةَ؛ فَمِنَ ٱلشَّمَالِ وَٱلْجَنُوبِ يُوجَدُ حَاجِزَانِ مَنِيعَانِ نَصَبَهُمَا ٱلصَّيَّادُونَ ، وَمِنَ ٱلْغَرْبِ تُوجَدُ ٱلْأَرْضُ ٱلَّتِي لَا نَسْتَطِيعُ ٱلْحَيَاةَ فَوْقَهَا ؛ لِأَنَّنَا مِنْ سُكَّانِ ٱلْمَاءِ ، مِنْهُ نَسْتَنْشِقُ هَوَاءَنَا ، وَفِيهِ نَجِدُ مَعَاشَنَا . أَمَّا ٱلشَّرْقُ ٱلَّذِي هُوَ مُتَّجَهُ مَسَاكِنِنَا وَسَبِيلُ نَجَاتِنَا ، فَقَدْ

مَنَعَهُ ٱلصَّيَّادُونَ عَنَّا بِمَا نَصَبُوا مِنْ شِبَاكٍ تَبْعَثُ فِينَا ٱلرُّعْبَ وَٱلْفَزَعَ.



ثُمَّ أَقْبَلَ ٱلصَّيَّادُونَ يَمْتَطُونَ فُلْكًا كَبِيرًا وَأَخَذُوا يَتَصَايَحُونَ مِنَ ٱلْفَرَحِ لِوُقُوعِنَا فِي شِرَاكِهِمْ . وَٱلْوَاقِعُ أَنَّنَا كُنَّا سَمَكًا كَثِيرًا، وَيَبْدُو أَنَّ ٱلصَّيَّادِينَ لَمْ يَنَالُوا مُنْذُ عَهْدٍ بَعِيدٍ مِثْلَ هَذِهِ ٱلْكَثْرَةِ؛ فَقَدْ صَاحَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ قَائِلاً: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَعْطَانَا مِنْ خَيْرٍ كَثِيرٍ لَقَدْ تَحَمَّلْنَا ٱلْخَيْبَةَ مِرَارًا عَدِيدَةً، وَتَلَقَّيْنَاهَا بِصَبْرٍ ثَابِتٍ وَعَزِيمَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ ، فَجَازَانَا

اللهُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرًا . لَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ : مَنْ صَبَرَ ظَفِرَ » .

وَسَكَتَتِ ٱلسَّمَكَةُ لَحْظَةً . ثُمَّ قَالَتْ :

« ...لَمَّا تَحَقَّقْنَا أَنَّنَا وَقَعْنَا فِي ٱلشَّرَكِ - وَلَا مَفَرَّ لَنَا - انْضَمَّ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ فِي فَوْضَى وَٱرْتِبَاكٍ ، نَجْرِي مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ ، نَبْحَثُ عَنْ مَخْرَجٍ أَوْ مَهْرَبٍ ... وَلَكِنْ بِدُونِ نَتِيجَةٍ . ثُمَّ ضَاقَتْ بِنَا ٱلْمَسَاحَةُ ٱلْمَحْصُورَةُ بَيْنَ ٱلْحِبَالِ وَٱلشِّبَاكِ . وَقَلَّ عُمْقُ ٱلْمَاءِ ، فَارْتَطَمَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ، وَسَالَتْ دِمَاؤُنَا ، وَٱخْتَلَطَتْ بِمَاءِ ٱلْبَحْرِ وَرِمَالِهِ ، وَكَثُرَ ضَجِيجُنَا وَصِيَاحُنَا حَتَّى لَمَسْنَا ٱلتُّرَابَ وَٱلْتَصَقَتْ بِنَا ٱلْحِبَالُ وَٱلشِّبَاكُ . فَتَمَلَّكَنَا ٱلْيَأْسُ ، وَبَدَأَتْ أَنْفَاسُنَا تَنْقَطِعُ لِقِلَّةِ ٱلْمَاءِ ، وَأَشْرَفْنَا عَلَى ٱلْهَلَاكِ ، فَلَمْ نَعُدْ نَعْرِفُ شَيْئًا .



وَلَسْتُ أَدْرِي - أَيُّهَا ٱلشَّيْخُ - كَيْفَ أَصْبَحْتُ خَارِجَ ٱلشِّبَاكِ . وَأَغْلَبُ ٱلظَّنِّ أَنَّ شِدَّةَ ازْدِحَامِنَا وَضِيقَ ٱلشِّبَاكِ بِكَثْرَتِنَا أَلْقَيَا بِي خَارِجَ ٱلشِّبَاكِ ، فَوَجَدْتُ نَفْسِي فِي ضَحْضَاحٍ قَلِيلِ ٱلْمَاءِ، إِذَا ٱسْتَطَعْتُ ٱلتَّنَفُّسَ فِي مَائِهِ ٱلْمَخْلُوطِ بِالدَّمِ وَٱلرِّمَالِ فَلاَ أَسْتَطِيعُ ٱلسِّبَاحَةَ فِيهِ وَٱلْإِفْلاَتَ مِنَ ٱلْخَطَرِ .



وَرَغمَ كُلِّ ذَلكَ فَقَدْ حَاوَلْتُ بِكُلِّ جُهُودِي أَنْ أَهْرُبَ وَأَنْ أَتَكَلَّفَ ٱلسِّبَاحَةَ بِمَشَقَّةٍ كَبِيرَةٍ . وَبَدَأَ أَمَلُ ٱلنَّجَاةِ يَقْتَرِبُ مِنِّي شَيْئًا فَشَيْئًا . وَمَا إِنْ أَوْشَكْتُ عَلَى ٱلنَّجَاةِ حَتَّى أَبْصَرْتُ بِرَجُلَيْنِ يَجْرِيَانِ وَرَائِي كَأَنَّهُمَا يَتَسَابَقَانِ عَلَى رِهَانٍ .

وَسَرْعَانَ مَا عَرَفْتُ أَنَّهُمَا يَتَسَابَقَانِ مِنْ أَجْلِي. وَمِنْ سُوءِ ٱلْحَظِّ وَصَلاَنِي مَعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ؛ فَوَضَعَ أَحَدُهُمَا بَاطِنَ قَدَمِهِ عَلَى ظَهْرِي ، وَأَمْسَكَ الْآخَرُ بِذَيْلِي ، فَأَحْسَسْتُ بِأَلَمٍ وَخَوْفٍ أَكْثَرَ مِمَّا كُنْتُ أُحِسُّ بِهِ وَسَطَ ٱلشِّبَاكِ . وَأَيْقَنْتُ بِأَنَّنِي سَوْفَ أُمَزَّقُ قِطَعًا بَيْنَهُمَا ، فَقَدْ أَخَذَ ٱلرَّجُلاَنِ يَتَخَاصَمَانِ مِنْ أَجْلِي . وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَنِي غَنِيمَةً خَالِصَةً





لَـهُ مِنْ دُونِ ٱلْآخَرِ ! وَٱشْتَدَّ
خِصَامُهُمَا وَعِرَاكُهُمَا، وَهُمَا
يُمْسِكَانِ بِي ، حَتَّى كَادَتْ
تَتَقَطَّعُ أَوْصَالِي .

ثُمَّ حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ مُتَوَقَّعًا ؛ فَقَدْ أَقْبَلَ أَحَدُ ٱلصَّيَّادِينَ غَاضِبًا

مُزَمْجِراً ، وَهُوَ يَشْتُمُ ٱلرَّجُلَيْنِ ٱلْمُتَخَاصِمَيْنِ ؛ لأَنَّ ٱلصَّيَّادَ مَا يَزَالُ يَعْتَبِرُنِي مِنْ خَالِصِ مَتَاعِهِ ،وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ يَمْنَعَ كُلَّ مَنْ يُرِيدُ أَخْذِي . وَلَوْ كَانَ ٱلرَّجُلاَنِ عَلَى وِفَاقٍ بَيْنَهُمَا لَقُضِيَ ٱلأَمْرُ ، وَٱقْتَسَمَانِي غَنِيمَةً بَيْنَهُمَا . وَلَكِنَّ تَحَاسُدَهُمَا حَرَمَهُمَا مِنِّي . فَمَا إِنْ وَصَلَ ٱلصَّيَّادُ حَتَّى ٱفْتَكَّنِي مِنْهُمَا وَأَصْبَحْتُ فِي قَبْضَتِهِ .

كَانَ ٱلصَّيَّادُ فَظًّا غَلِيظًا فِي مُعَامَلَتِي ؛فَقَدْ ضَغَطَ عَلَيَّ بِجُمْعِ كَفِّهِ ضَغْطَةً شَدِيدَةً ، لَمْ أَعْرِفْهَا وَأَنَا بَيْنَ ٱلرَّجُلَيْنِ ٱلْمُتَخَاصِمَيْنِ . وَبَقِيتُ فِي قَبْضَتِهِ لَحْظَةً كَانَتْ عَسِيرَةً عَلَيَّ . ثُمَّ جَمَعَ ٱلصَّيَّادُ كُلَّ قُوَاهُ فِي يَدِهِ ، وَقَذَفَ بِي بَعِيدًا فِي عُمْقٍ كَبِيرٍ مِنْ مَاءِ ٱلْبَحْرِ ؛ فَاخْتَلَطَ عَلَيَّ ٱلأَمْرُ وَفَقَدْتُ

اَلشُّعُور والْإِدْرَاكَ . . .وَلاَ أَدْرِي كَمْ مَضَى عَلَيَّ مِنْ وَقْتٍ وَأَنَا فِي غَيْبُوبَةٍ وَإِغْمَاءٍ .

ثُمَّ بَدَأْتُ أُفِيقُ مِنْ غَيْبُوبَتِي شَيْئًا فَشَيْئًا . وَرَجَعَ إِلَيَّ رُشْدِي . وَٱسْتَجْمَعْتُ قُوَايَ ؛ فَأَخَذْتُ أَسْبَحُ هَارِبَةً مَذْعُورَةً لاَ أَعْرِفُ إِلَى أَيْنَ أَقْصِدُ . كُنْتُ بِحَقٍّ كَالْمَعْتُوهَةِ ٱلشَّارِدَةِ ، أَتَخَيَّلُ أَنَّنِي سَأَقَعُ



فِي ٱلشِّبَاكِ كُلَّ لَحْظَةٍ؛ وَأَنَّ ٱلصَّيَّادِينَ يُلاَحِقُونَنِي لِيَقْبِضُوا عَلَيَّ.

قَطَعْتُ مَسَافَات طَوِيلَةً دُونَ أَنْ أُفَكِّرَ فِي أَكْلٍ أَوْ رَاحَةٍ أَوْ نَوْمٍ حَتَّى أَدْرَكَنِي ٱللَّيْلُ، وَأَنَا عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالَةِ مِنَ ٱلْهَلَعِ وَٱلشُّرُودِ، فَلَمْ يَهْدَأْ بَالِي وَلَمْ تَبْعُدْ عَنِّي أَشْبَاحُ ٱلصَّيَّادِينَ ٱلْمُرْعِبَةُ. وَأَقْبَلَ ٱللَّيْلُ مُظْلِمًا مُخِيفًا، وَمَعَ ذَلِكَ تَمَادَيْتُ فِي ٱلسِّبَاحَةِ وَٱلْعَدْوِ ٱلسَّرِيعِ. وَفِي هَذَا ٱلظَّلاَمِ ٱلدَّامِسِ هَبَّتْ عَاصِفَةٌ هَوْجَاءُ أَرْغَى لَهَا ٱلْبَحْرُ وَأَزْبَدَ، فَتَعَاظَمَتْ أَمْوَاجُهُ وَٱرْتَفَعَتْ أَوَاذِيُّهُ.

اِزْدَادَ خَوْفِي وَٱضْطِرَابِي لَمَّا هَاجَ ٱلْبَحْرُ عَلَى هَذِهِ ٱلصُّورَةِ ٱلْمُزْعِجَةِ، وَخَانَتْنِي قُوَايَ فِي مُغَالَبَةِ ٱلْمَوْجِ وَمُقَاوَمَةِ ٱلتَّيَّارِ ٱلصَّاخِبِ، فَأَصْبَحْتُ



طَوْعَ ٱلْأَمْــوَاجِ تُـوَجِّهُنِي كَيْفَ تَشَاءُ . وَبَلَـغَ مِنِّي ٱلتَّعَبُ غَايَتَـهُ فَاسْتَسْلَمْتُ لِلْمَوْجِ لِيَفْعَلَ بِي مَا يُـرِيدُ .

ٱسْتَمَرَّتِ ٱلْعَاصِفَةُ وَهَيَجَــانُ ٱلْبَحْرِ إِلَى مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ . ثُـمَّ هَدَأَتِ ٱلْعَاصِفَةُ، وَسَكَنَ ٱلْبَحْرُ؛ فَأَحْسَسْتُ بِـرَغْبَةٍ شَدِيـدَةٍ فِي ٱلاسْتِرَاحَةِ وَٱلنَّوْمِ . وَمَا لَبِثْتُ قَلِيلاً حَتَّى أَدْرَكَنِي ٱلنَّـوْمُ .وَسَبَحْتُ فِي بَحْرٍ مِنَ ٱلْأَحْلاَمِ ٱلْمُزْعِجَــةِ . ثُمَّ أَفَقْتُ مَذْعُورَةً عِنْـدَمَا صَدَمَنِي حَيْـزُومُ سَفِينَـةٍ كَانَتْ تَمْخُرُ عُبَابَ ٱلْبَحْـرِ . وَكَانَ لِـرُكَّابِهَــا جَلَبَةٌ وَضَوْضَاءُ .

عِنْـدَمَا ٱسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَـوْمِي كَانَتِ ٱلشَّمْسُ قَـدْ أَشْرَقَتْ ، وَأَضَاءَتِ ٱلْكَوْنَ بِنُـورِهَا ٱلسَّاطِعِ . فَأَحْسَسْتُ بِالرَّاحَةِ وَبِشَيْءٍ مِنَ ٱلاطْمِئْنَانِ . وَلَـكِنِّي دُهِشْتُ

لَمَّا وُجَدْتُ نَفْسِي غَرِيبَةً فِي مَكَانٍ لَمْ أَعرِفْهُ مِنْ قَبْلُ : وَجَدْتُ نَفْسِي فِي بَحْرٍ يَخْتَلِفُ قَاعُهُ وَنَبَاتُهُ وَصَرِيعُهُ عَمَّا أَعْرِفُهُ



كَانَ هَذَا ٱلْبَحْرُ قَلِيلَ عُمْقِ ٱلْمَاءِ ، طَوِيلَ ٱلْمَدِّ وَٱلْجَزْرِ فَاحْتَرْتُ فِي أَمْرِي ، وَحَمْلَقْتُ فِي كُلِّ جِهَةٍ ، فَلَمْ أَهْتَدِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْمَكَانِ ٱلذي أَنَا فِيهِ. قَفَزْتُ فَوْقَ سَطْحِ ٱلْمَاءِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ فَرَأَيْتُ ٱلسَّاحِلَ لا يَبْعُدُ

عَنِّي كَثِيرًا . كَمَا رَأَيْتُ قَرْيَةً قَرِيبَةً مِنَ ٱلشَّاطِىءِ لَمْ أَرَهَا مِنْ قَبْلُ .

بَقِيتُ مُضْطَرِبَةً ، وَاجِمَةً ، مُفَكِّرَةً ، إِلَى أَنْ مَرَّ بِالْقُرْبِ مِنِّي رَجُلاَنِ فِي لِبَاسِ ٱلْبَحَّارَةِ كَانَا يَتَحَدَّثَانِ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ . وَعَرَفْتُ مِنْ حَدِيثِهِمَا أَنَّ ٱلْقَرْيَةَ ٱلتِي رَأَيْتُهَا عِنْدَمَا قَفَزْتُ فَوْقَ سَطْحِ ٱلْمَاءِ هِيَ قَرْيَةُ «ٱلْمَحْرَسِ» . وَهِيَ قَرْيَةٌ تَبْعُدُ عَنِ ٱلْمَكَانِ ٱلذِي بَدَأَتْ فِيهِ مِحْنَتِي مَعَ ٱلصَّيَّادِينَ بِمَرَاحِلَ عَدِيدَةٍ .

فَقَدْ وَقَعْتُ فِي شِبَاكِ ٱلصَّيَّادِينَ أَمَامَ قَرْيَةِ « غَنُّوش » ٱلْوَاقِعَةِ قَرِيبًا مِنْ مَدِينَةِ « قَابِس » . وَهِيَ ٱلْمَدِينَةُ ٱلتِي ٱشْتَهَرَ خَلِيجُهَا بِصَيْدِ سَمَكِ ٱلتُّنِّ . وَلَيْسَ مِنَ ٱلسَّهْلِ عَلَيَّ أَنْ أَقْطَعَ تِلْكَ ٱلْمَسَافَةَ ٱلطَّوِيلَةَ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ .

لِهَذَا أَصْبَحْتُ أَعْتَقِدُ بِأَنَّ أَيَّامًا عَدِيدَةً مَضَتْ عَلَيَّ وَأَنَا فِي غَيْبُوبَةٍ وَذُهُولٍ، لَا أُدْرِكُ شَيْئًا وَلَا أَشْعُرُ بِمَا يَقَعُ حَوْلِي.

وَتَنَهَّدَتِ ٱلسَّمَكَةُ. ثُمَّ عَادَتْ تَحْكِي بَقِيَّةَ قِصَّتِهَا قَائِلَةً :



«... لَمَّا تَبَيَّنْتُ مَا أَصْبَحْتُ عَلَيْهِ أَحْسَسْتُ بِوَحْشَةٍ وَٱنْفِرَادٍ ؛ فَأَنَا غَرِيبَةٌ حَقًّا ، غَرِيبَةٌ عَنِ ٱلْأَهْلِ وَٱلْخِلَّانِ ، بَعِيدَةٌ عَنْ مَوْطِنِي ، وَمَرَاتِعِ شَبَابِي ، وَمَلَاعِبِ صِبَايَ . لِهَذَا عَزَمْتُ عَلَى ٱلْعَوْدَةِ إِلَى مَوْطِنِي وَأَهْلِي مَهْمَا لَقِيتُ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ مِنْ مَشَقَّةٍ وَأَتْعَابٍ .

تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللهِ وَبَدَأْتُ رِحْلَتِي. وَكَانَ ٱتِّجَاهِي مَشْرِقَ ٱلشَّمْسِ ، أُحَاوِلُ أَلَّا أَبْعُدَ كَثِيرًا عَنِ ٱلشَّاطِئِ حَتَّى أَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِي ، وَلَا أَضِلَّ طَرِيقِي .

ٱسْتَغْرَقَتْ رِحْلَتِي أُسْبُوعًا كَامِلًا رَأَيْتُ خِلَالَهُ أَصْنَافًا عَدِيدَةً مِنَ ٱلْمَشَاهِدِ ٱلرَّائِعَةِ ، وَأَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً مِنَ ٱلْأَسْمَاكِ وَحَيَوَانَاتِ ٱلْبَحْرِ . وَقَدْ

تَعَرَّضْتُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ إِلَى هُجُومَاتِ أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْأَسْمَاكِ ٱلْكَبِيرَةِ وَٱلشِّرِّيرَةِ . وَقَدْ نَجَوْتُ مِنْهَا كُلِّهَا بِفَضْلِ يَقَظَتِي ٱلْمُسْتَمِرَّةِ وَٱنْتِبَاهِي ٱلْمُتَوَاصِلِ .

وَلاَ أَكْذِبُكَ ـ أَيُّهَا ٱلشَّيْخُ ٱلْوَقُورُ ـ إِذَا قُلْتُ لَكَ : إِنَّنِي كُنْتُ فِي مُتْعَةٍ أَثْنَاءَ تِلْكَ ٱلرِّحْلَةِ رَغْمَ هَذَا ٱلشَّوْقِ ٱلْكَبِيرِ إِلَى وَطَنِي وَأَهْلِي .

وَفِي مَسَاءِ ٱلْيَوْمِ ٱلسَّابِعِ وَصَلْتُ إِلَى مَوْطِنِي فَاسْتَقْبَلَنِي أَهْلِي بِتَرْحَابٍ ، وَدَهْشَةٍ ، وَٱسْتِغْرَابٍ ؛ لأَنَّهُمْ يَئِسُوا مِنْ عَوْدَتِي ، وَٱعْتَبَرُونِي مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ ، كَمَا ٱسْتَغْرَبُوا هَذَا ٱلتَّغَيُّرَ ٱلذِي ٱنْتَابَنِي ، وَهَذَا ٱلشُّحُوبَ ٱلظَّاهِرَ عَلَى كُلِّ جِسْمِي .



وَلَكِنَّ ٱلدَّهْشَةَ وَٱلْاسْتِغْرَابَ ٱللَّذَيْنِ تَلَقَّانِي بِهِمَا أَهْلِي سَرْعَانَ مَا زَالاَ بَعْدَ أَنْ قَصَصْتُ عَلَيْهِمْ جَمِيعَ مَا مَرَّ عَلَيَّ مِنْ أَهْوَالٍ مُنْذُ أَنْ خَرَجْتُ لِلرَّعْيِ مَعَ رَفِيقَاتِي إِلَى أَنْ عُدْتُ إِلَيْهِمْ فَرِيدَةً وَحِيدَةً.

ارْتَفَعَ مَقَامِي عِنْدَ أَهْلِي وَأَتْرَابِي؛ وَأَصْبَحْتُ مَحَلَّ ٱلْإِجْلَالِ وَٱلرِّعَايَةِ وَٱلاعْتِبَارِ. وَكَمْ كَانَ يَلَذُّ لِلْبَعْضِ مِنْ أَتْرَابِي وَصِغَارِ ٱلتُّنِّ أَنْ يَجْتَمِعْنَ

حَوْلِي وَيَطْلُبْنَ مِنِّي أَنْ أَقُصَّ عَلَيْهِنَّ
مَا شَاهَدْتُ وَأَنْ أُعِيدَ عَلَيْهِنَّ مَا رَأَيْتُ
وَٱلْوَاقِعُ أَنَّهُ أَصَابَنِي شَيْءٌ مِنَ
ٱلْغُرُورِ وَحُبٌّ ٱلتَّزَايُدِ فِي ٱلْأَخْبَارِ
وَٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلْوَصْفِ فَكَثِيرًا مَا كُنْتُ
أُهَوِّلُ فِي ٱلْوَصْفِ وَأَعْرِضُ عَلَيْهِنَّ
صُوَرًا وَمَشَاهِدَ مَا رَأَيْتُهَا قَطُّ، حُبًّا
فِي جَلْبِ أَسْمَاعِهِنَّ، وَسَعْيًا لِاكْتِسَابِ
إِعْجَابِهِنَّ وَكُنْتُ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ
أُنَاقِضُ نَفْسِي فِي سَرْدِ ٱلْحَوَادِثِ



وَٱلْأَخْبَـارِ . وَلَكِنَّ ٱلْبَعْضَ مِنَ ٱلْمُعْجَبَـاتِ بِحَدِيثِي يَتَصَدَّيْنَ لِدَفْعِ أَيِّ اعْتِرَاضٍ ، وَرَدِّ أَيِّ ٱنْتِقَـادٍ ، وَيُحَاوِلْـنَ بِكُلِّ ٱلْوَسَـائِلِ أَنْ يَـجْعَلْنَ ٱلصَّوَابَ فِي جَانِبِي مَهْمَـا بَالَغْتُ فِي ٱلْقَوْلِ ، وَهَوَّلْتُ فِي ٱلْأَخْبَـارِ .

وَبِهَذَا جَنَيْتُ عَلَى غَيْرِي عِنْدَمَا جَعَلْتُ مِنْ بَعْضِ ٱلْمُعْجَبَاتِ بِي مَنْ تُدَافِعُ عَنِّي حَقًّـا أَوْ بَاطِلاً ، وَتَعْتَبِرُ كُلَّ كَلِمَةٍ أَقُولُهَـا ، يَـجِبُ ٱلتَّسْلِيمُ بِهَـا وَتَصْدِيقُهَـا .

أَمَّا أَنَـا فَقَدْ ٱزْدَدْتُ إِمْعَانًـا فِي ٱلْغُرُورِ وَٱلْإِعْجَابِ بِنَفْسِي . وَٱلْإِعْجَابُ وَٱلْغُرُورُ لاَ يَنْتَهِيَانِ بِصَاحِبِهِمَـا إِلَى عَاقِبَةٍ حَمِيدَةٍ . وَهَـذَا مَا حَصَلَ لِي أَنَا بِالْفِعْلِ ؛ فَقَدْ دَفَعَنِي غُرُورِي وَإِعْجَابِي بِنَفْسِي إِلَى أَنْ أَقُـومَ بِمُغَامَرَةٍ

أُخْـرَى لاَ يُشَارِكُنِي فِيهَـا أَحَدٌ . أَلَمْ أَكُنْ أَدَّعِي ٱلشَّجَاعَةَ ، وَأَتَظَاهَـرُ بِالْبُطُولَـةِ أَمَامَ أَهْلِي وَصَدِيقَـاتِي ؟ !

وَعَزَمْتُ عَلَى تَنْفِيذِ ٱلْمُغَامَرَةِ ٱلْجَدِيدَةِ . فَفِي فَجْرِ أَحَـدِ ٱلْأَيَّامِ وَدَّعْتُ أَهْلِي ، وَشَرَعْتُ فِي ٱلْقِيَـامِ بِرِحْلَةٍ أُخْـرَى عَسَى أَنْ أَعُودَ مِنْهَـا بِأَخْبَارٍ عَجِيبَةٍ ، وَأَحْدَاثٍ غَرِيبَةٍ ، أَزْدَادُ بِهَـا حُظْوَةً وَشُهْـرَةً عِنْدَ أَهْلِي وَمُجْـتَمَعِي .

بَدَأْتُ رِحْلَتِي ٱلثَّانِيَةَ فِي مَطْلَعِ فَجْرِ يَوْمٍ ضَحُوكٍ .

كَانَ ٱلْجَوُّ هَادِئًا لَطِيفًا . وَكَانَتِ ٱلسَّمَـاءُ صَافِيَةً لاَ غُيُومَ فِيهَا . وَبَعْضُ ٱلنُّجُومِ مَا تَزَالُ لَأْلاَءَةً لاَمِعَةً تَنْعَكِسُ صُوَرُهَا عَلَى مَاءِ ٱلْبَحْرِ ، فَتَبْدُو مِنْ خِـلاَلِ ٱلْمَاءِ فِي مَنْظَرٍ بَدِيعٍ خَلاَّبٍ . أَمَّا ٱلْهِلاَلُ فَكَانَ بَاهِتًا نَحِيلاً ؛

لَكِنَّهُ زَادَ ٱلسَّمَاءَ رَوْعَةً وَجَمَالاً .

كُنْتُ أَسْبَحُ هَادِئَةً مُطْمَئِنَّةً ، أَتَهَادَى فِي زَهْوٍ وَخُيَلاَءَ، وَأَتَخَيَّلُ يَوْمَ عَوْدَتِي إِلَى أَهْلِي مُزَوَّدَةً بِعَجَائِبِ ٱلْأَخْبَارِ ، وَغَرَائِبِ ٱلْأَحْدَاث . ثُمَّ بَزَغَتِ ٱلشَّمْسُ، وَظَهَرَ فِي ٱلْأُفُقِ قُرْصُهَا ٱلْمُشْرِقُ فِي لَوْنٍ أُرْجُوَانِيٍّ بَدِيعٍ ؛ فَاكْتَمَلَ بِضَوْئِهِ وَإِشْرَاقِهِ جَمَالُ ٱلطَّبِيعَةِ وَسِحْرُهَا ٱلْآخِذُ بِمَجَامِعِ ٱلْقُلُوبِ . وَلَكِنَّ إِشْرَاقَ ٱلشَّمْسِ كَشَفَ لِي عَمَّا بَعَثَ فِي نَفْسِي ٱلْأَلَمَ وَٱلْحُزْنَ ، فَقَدْ أَلْقَى ٱلصَّيَّادُونَ بِشِبَاكِهِمْ مِنْ وَرَائِي دُونَ أَنْ أَنْتَبِهَ إِلَى ذَلِكَ . وَمِمَّا زَادَنِي أَلَمًا وَخَوْفًا أَنَّنِي كُنْتُ ٱلسَّمَكَةَ ٱلْوَحِيدَةَ فِي ٱلشِّبَاكِ ؛ فَاشْتَدَّ جَزَعِي وَهَلَعِي . وَأَحْسَسْتُ بِنَدَمٍ كَبِيرٍ عَلَى قِيَامِي بِهَذِهِ ٱلْمُغَامَرَةِ وَحْدِي . نَعَمْ ! كَانَتْ تُوجَدُ مَعِي فِي ٱلشِّبَاكِ حَيَوَانَاتٌ بَحْرِيَّةٌ أُخْرَى . لَكِنَّهَا كَانَتْ حَيَوَانَاتٍ





مَكْرُوهَــةً مِنَ ٱلصَّيَّادِينَ يَعْتَبِرُونَهَــا مَبْعَثًا لِلسُّخْطِ وَٱلتَّشَاؤُمِ !... كَانَ مَعِي دَاخِلَ ٱلشِّبَاكِ سَبْعُ سَلاَحِفَ وَتِسْعٌ مِنْ رِئَاتِ ٱلْبَحْرِ . وَمَا إِنْ عَرَفَ ٱلصَّيَّادُونَ ذَلِكَ حَتَّى ٱنْدَفَعُوا يَسُبُّونَ وَيَشْتُمُونَ .

وَٱلْغَرِيبُ فِي ٱلْأَمرِ أَنَّنِي كُنْتُ وَحْدِي مَحَلَّ ٱلسَّبِّ وَٱلشَّتْمِ دُونَ ٱلسَّلاَحِفِ وَرِئَاتِ ٱلْبَحْرِ . فَهَذَا بَحَّارٌ يَسُبُّ ، وَذَاكَ يَشْتُمُ ، وَٱلْآخَرُ يَسْخَرُ مِنِّي قَائِلاً : يَالَكِ مِنْ سَمَكَــةٍ مَغْرُورَةٍ مَشْؤُومَةٍ ! أَهَذَا هُوَ مَحْصُولُ خَمْسَةَ عَشَــرَ صَيَّادًا يَعْمَلُونَ مُنْذُ مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ ! أُفٍّ لَكِ مِنْ سَمَكَةٍ غَرِيبَةٍ طَرِيدَةٍ !

أَمَّا أَنَا فَقَدِ ٱشْتَدَّ ٱضْطِرَابِي وَخَوْفِي . وَأَيْقَنْتُ بِأَنَّنِي لَنْ أَعُودَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى أَهْلِي . وَتَذَكَّرْتُ بِحَسْرَةٍ وَمَرَارَةٍ ٱلْحِكْمَةَ ٱلَّتِي تَقُولُ : مَنْ لَمْ

يَتَّعِظْ بِالْحَادِثِ ٱلْأَوَّلِ أَهْلَكَهُ ٱلْحَادِثُ ٱلثَّانِي .

لَمْ يَحْفَلْ بِيَ ٱلصَّيَّادُونَ ، وَلَمْ يَهْتَمُّوا بِأَمْرِي . بَلِ انْكَبُّوا عَلَى شِبَاكِهِمْ يُخَلِّصُونَهَا مِنَ ٱلسَّلَاحِفِ وَرِئَاتِ ٱلْبَحْرِ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ أَحَدُ ٱلصَّيَّادِينَ ؛ وَأَخْرَجَنِي مِنْ بَيْنِ خُيُوطِ ٱلشِّبَاكِ ٱلْفَارِغَةِ بِيَدٍ لَا نَشَاطَ فِيهَا وَلَا حَمَاسَ ؛ كَأَنَّنِي شَيْءٌ تَافِهٌ حَقِيرٌ ، لَا أَرَبَ فِيهِ ، وَلَا فَائِدَةَ مِنْهُ .

وَمَنْ يَدْرِي – أَيُّهَا ٱلشَّيْخُ ٱلْوَقُورُ – لَوْ لَمْ يَجِدْكَ ٱلصَّيَّادُ بِقُرْبِهِ ؟ كَانَ رُبَّمَا أَلْقَى بِيَ إِلَى ٱلْكِلَابِ ، أَوْ رَفَسَنِي فِي ٱلتُّرَابِ . وَلَكِنَّ ٱلصَّيَّادَ قَدَّمَنِي إِلَيْكَ عَطِيَّةً وَهَدِيَّةً ، مُقَدِّرًا شَيْخُوخَتَكَ وَطُولَ ٱنْتِظَارِكَ وَٱلْآنَ أَسْتَوْدِعُكَ ٱللَّهَ – أَيُّهَا ٱلشَّيْخُ – فَمَا أَسْتَطِيعُ ٱلْعَيْشَ فَوْقَ أَرْضِكُمْ لَحْظَةً بَعْدَ ٱلْآنَ .



سحب من هذا الكتاب في نشرته الخامسة 5000 نسخة

مطبعة الكواكب

مطبعة الكا

الثمـن : 0،400 د٠ت٠